

# الضاد الخالدة

لفضيلة الشيخ الحاج ابراهيم نياس

مفتي الديار السنغالية

توصلنا من فضيلة الشيخ الاستاذ الحاج ابراهيم نياس مفتي الديار السنغالية وحامل مشعل الدعوة الاسلامية في البلاد الافريقية يبحث قيم حول اعجاز لغة القرآن وتطوراتها التاريخية ، وقد ابنى حفظه الله الا ان يشيد بمجلة « اللسان العربي » ذلك « المنبر المبارك الذي يتعاقب عليه باستمرار المستعدون من اصحاب الفيرة على لغة القرآن يشيدون بعظمتها ويبرزون خصائصها ويدافعون عن حماها ويسخرون من المحاولات التي تستهدف تعطيل رسالتها الخالدة ، ولكن لغة الضاد مضمونة البقاء لانها بالقرآن عاشت وتحدث العصور والعقبان وبالقرآن تخلد » .

قال حفظه الله ما ملخصه :

اللغة العربية اقدم اللغات الحية فليس ثمة في العالم لغة محكية اقدم منها ولا تزال اللغة العربية تحتفظ بالاعراب تالما كاملا كما كان شأن جيبس اللغات القديمة ، اما معظم اللغات الاخرى فقد فقدت الاعراب ولكننا نجد الاعراب شبه تام في اللغتين الالمانية والاسلندية كما نجد بعض الاعراب في اللغة الدنمركية واللغة الروسية ، وهناك آثار للاعراب في عدد من اللغات الباقية .

ويبدو ان اللغة العربية انفصلت مع اخواتها الشماليات من اللغة السامية الام منذ زمن بعيد جدا ثم عادت فانفصلت من المجموعة الشمالية ايضا منذ زمن بعيد واذا نحن دققنا النظر في اللغة العربية وجدناها اكثر اخواتها الساميات مفردات واتمها صيفا واكملها صرفا ونحوا وارتماها بيانا وبلاغة واحسنها اسلوبا من اجل ذلك لا نستبعد ان تكون اللغة العربية هي اللغة السامية الام الفصحى وان سائر اللغات السامية من شمالية كالبابلية والكنعانية والارامية ومن جنوبية كالحبشية والحبيرية لهجات ومع كثرة الصلات التي كانت بين عرب الشمال وعرب الجنوب

منذ اقدم الازمنة فان لغة حمير اليمن ابتعدت كثيرا عن اللغة المضرية العربية الشمالية التي نزل بها القرآن الكريم حتى قال ابو عمرو ابن العلاء منذ صدر الدولة العباسية : « ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » .

وكان جميع العرب الذين كانوا يسكنون النصف الشمالي من شبه الجزيرة في البحرين واليهامة ونجد والحجاز سواء اكانوا ينتسبون الى مضر او الى اليمن يتكلمون لغة واحدة وينظمون فيها اشعارهم فلقد رأينا شعراء الجاهلية من أي المواطن كانوا ينظمون قصائدهم بلغة واحدة في كل شيء ثم يحملون تلك القصائد لينشدوها في جميع اقسام بلاد العرب وفي العراق والشام حتى اليمن نفسها مما يدل على ان لغة مضر كانت في الجاهلية اللغة العامة للعرب كلهم .

على ان هذا لم يمنع ان يكون للعرب لهجات محلية مانوسة في قبيلة قبيلة على ان معنى اللهجة هنا انها هو استعمال الفاظ مختلفة للمعنى الواحد في بعض الاحيان والمجى بصيغ متباينة لتلك الالفاظ احيانا اما التركيب والنحو والمنطق اللغوي فكانت كلها واحدة .

من هذه الالفاظ : قرطاس درهم دينار سجل  
برنس كرسي دمقس استبرق قصر ، وهذه الكلمات  
الاعجمية دخلت في الشعر الجاهلي وبعضها ورد في  
القرآن الكريم .

وبينما كانت اللغة العربية تتمثل هذه الالفاظ  
الاعجمية كانت ثمة الفاظ عربية خالصة تخرج من  
الاستعمال وتصبح غريبة بعد ان كانت دائرة في  
الشعر الجاهلي وبعد ان كان بعضها قد جاء في  
القرآن الكريم من هذه الالفاظ الحبك (بضمين) الحبي  
(بفتح الحاء وضمها وبكر الباء بعدها ياء مشددة)  
الفند (بفتحين) الكذب المحال (بكسر الميم) .

ومع ان عرب الجاهلية لم يكونوا اهل كتابة فان  
الكتابة عندهم لم تكن نادرة كما يتخيل بعضهم. لقد  
كان العرب يكتبون بينهم العقود والمواثيق ويكتبون  
الرسائل في بعض الاحوال ويبدو ان الشعراء كانوا  
يدونون اشعارهم ايضا ومع ان الكتابة كانت معروفة  
في الجاهلية فانها لم تكن مألوفة وخصوصا في البادية.

وكثر اللحن بعد الاسلام بعوامل كثيرة منها  
اختلاط العرب بغيرهم من الروم والفرس والنبط بعد  
ان دخل هؤلاء في الاسلام وبعد ان نزل العرب بالفتح  
في الشام والعراق وفارس والهند وافريقية والاندلس.

ومن اسباب اللحن سكنى المدن التي يكثر فيها  
الاعاجم ومنها كثرة الجوارى في الحياة العربية وقد  
كن عجيبات او مولدات ومنها تفشى الجهل بتفرك  
نفر من اهل المدن دراسة للغة والنحو ومنها  
الجوازات في الشعر فقد كانت تبدأ اضطرارا ثم  
تعم بطول القراءة والرواية وعم اللحن حتى ان  
الحجاج ابن يوسف كان يستدرك عليه اللحن بعد  
اللحن ، اما الخليفة الوليد بن عبد الملك فقد كان  
لحانا .

وقال الفخر الرازي في تفسيره عند قوله تعالى:  
او يأخذكم على تخوف وعن عمر انه قال على المنبر  
« ما تقولون في هذه الآية فسكنوا مقام شيخ من هذيل  
فقال هذه لغتنا التخوف التتقص فقال عمر هل تعرف  
العرب ذلك في اشعارها ؟ قال نعم ، قال شاعرنا :

تخوف الرجل منها تاكنا فردا  
كما تخوف عود النبعة السفن

وقد خطأوا المتنبى واما تمام والبحري في اشياء  
كثيرة كما هو مسطور في شروح تلك الدواوين وفي  
الاعتراح للجلال السيوطي : « اجمعوا على انته

ففي الحجاز مثلا كانوا يسهلون الهمزة فيقولون  
سال سل وكذ كلاك بينما كان اهل نجد يقولون سال  
اسال اكد كلاك وكان اهل الحجاز يقولون وعد بمعنى  
هدد وكان بعضهم يقول سكنين بينما بعضهم الآخر  
كان يسمي السكنين مدية ، ولقد كانت هذه الالفاظ  
المختلفة في القبائل المختلفة مألوفة على  
كثيرة او قللة في جميع بلاد العرب  
ودائرة على السنة شعراء الجاهلية فلما جاء  
اصحاب المعاجم عدوا جميع هذه الالفاظ عربية تامة  
فضموها الى معاجمهم من غير تفريق بينها .

ومن هنا نشأت المترادفات الكثيرة حتى رأينا  
للسيف في القاموس العربي الف اسم وحتى رأينا كلمة  
خال تدل على اربعين معنى .

وخضعت لغة مضر لما كانت قد خضعت له  
اخواتها من قبل بعوامل من الهمم وتأثير من العوامل  
الاجنبية فبدأ فيها اللحن قال ابو عمرو بن العلاء :  
« فحلان من الشعراء كانا يخطئان في حركة السروي  
الحرف الذي تبني عليه القافية النابغة وبشر بن ابي  
خازم وهذا معروف عند امرئ القيس وعند غيره  
ايضا فاذا كانوا يلحنون فمبالك بسائر اهل الجاهلية».

وفي خصائص ابن جنبي(ص37): «ونزل القرآن الكريم  
بلغة العرب التي كانوا ينظمون فيها شعرهم ويلقون  
فيها خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهم ومصداق ذلك  
توله تعالى في سورة ابراهيم وما أرسلنا من رسول  
الا بلسان قومه ليبين لهم » .

وجاءت صفة مبين نعتا للسان العربي وللقرآن  
وللكتاب وللرسول اثنى عشرة مرة في القرآن الكريم  
منها « ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان  
الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين »  
ومنها ايضا « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون  
من المنذرين بلسان عربي مبين » . ومع نزول القرآن  
الكريم ولاهتمام المسلمين بتدوين كل آية عند نزولها  
ثم بالمحافظة على كل جملة ولفظة وحركة ووقف عليه.

وقفت لغة مضر عن التتهقر وحفظت الى اليوم  
كما كانت في عهد الرسول لغة لنا فصحي صحيحة  
مانوسة ومنذ الجاهلية دخلت على اللغة العربية  
كلمات اعجمية لمسميات لم تكن عند العرب ثم طرأت  
عليهم فأخذوها باسمائها غير ان اللسان العربي  
استطاع ان يصقل هذه الالفاظ الاعجمية حتى أصبح  
بعضها وكأنه عربي خالص .

لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية وفي الكشاف ما يقتضي تخصيص ذلك بغير ائمة اللغة ورواتها فانه استشهد على مسألة بقول ابي تمام الطائي .

وأول الشعراء المحدثين بشار بن برد وقد احتج سيبويه ببعض شعره تقريبا اليه لأنه كان هجاء لتركه الاحتجاج بشعره ذكره المرزباني وغيره ونقل ثعلب عن الاصمعي انه قال ختم الشعر بابراهيم بن هرمة وهو آخر الحجج اهـ

ومن جهة أخرى يجوز الاستشهاد بمتواتر القرآن وشأذه .

وكذلك الاستدلال بحديث النبي صلى الله عليه وسلم فقد جوزه ابن مالك ، ومنعه ابن الضائع وأبو حيان وسندهما ان الاحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم وانما رويت بالمعنى وان ائمة النحو المتقدمين من المصريين لم يحتجوا بشيء منه ورد الاول على تقدير تسليمه بان النقل بالمعنى انما كان في الصدر الاول قبل تدوينه في الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق على ان اليقين غير شرط بل الظن كاف، ورد الثاني بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحوي في ضبط الفاظه ويلحق به ما روي عن الصحابة .

وتجوز الرواية بالمعنى هو السبب — كما قال ابو الحسن بن الضائع في شرح الجمل — في ترك ائمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على اثبات اللغة بالحديث واعتقدوا في ذلك على القرآن وصرح النقل عن العرب ولولا ذلك لكان الاولى في اثبات نصيح اللغة كلام النبي صلى الله عليه وسلم لانه أفصح العرب على ان ابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا .

وانتقد أبو حيان في شرح التسهيل على مصنفه الاستدلال بما وقع في الاحاديث على اثبات القواعد النكبية في لسان العرب ملاحظا انه ما رأى احدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره على ان الواضعين الاولين لعلم النحو المستقرئين للاحكام من لسان العرب كابي عمرو ابن العلاء وعيسى ابن عمر والخليل وسيبويه من ائمة البصريين والكسائي والفراء وعلي بن المبارك الأحمر وهشام الضرير من ائمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك ، وحذا حذوهم المتأخرون

من الفريقين وغيرهم من نحاة الاقاليم كنحاة بغداد واهل الاندلس .

ولو وثق الناس ان الحديث هو لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم لجري مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية . غير اننا نجد قصة واحدة تدجرت في زمانه صلى الله عليه وسلم تروى بالفاظ مختلفة نحو ما روي من قوله زوجته بما معك من القرآن أو ملكتها بما معك من القرآن أو خذها بما معك من القرآن ، فنعلم يقينا انه صلى الله عليه وسلم لسم لفظ بجميع هذه الالفاظ بل لا نجزم بأنه قال بعضها اذ يحتمل أنه قال لفظا مرادفا لهذه الالفاظ غيرها فاننت الرواية بالمرادف ولم تأت بلفظه اذ المعنى هو المطلوب ولاسيما مع تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة، والاتكال على الحفظ والضابط منهم من ضبط المعنى ، واما من ضبط اللفظ فمباعد جدا لاسيما في الاحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري ان قلت لكم اني احديثكم كما سمعت فلا تصدقوني انما هو المعنى ومن نظر في الحديث ادنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى، وهناك شيء آخر وهو أنه وقع اللحن كثيرا فيها روي من الحديث لان كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصح من لسان العرب ، ونعلم تطعا من غير شك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح الناس فلم يكن يتكلم الا بأفصح اللغات واحسن التراكيب واشهرها وأجزلها واذا تكلم بلغة غير لغته فانما يتكلم بذلك مع اهل تلك اللغة على طريق الاعجاز وتعليم الله ذلك له من غير معلم اهـ

وتدوين الاحاديث والايخبار بل وكثير من الرويات وقع في الصدر الاول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام اولئك المبدلين على تقدير تبديلهم يسوغ الاحتجاج به وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق بين الجميع في صحة الاستدلال .

واليك نبذة من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم :

— المسلمون تتكافأ دعاؤهم ويسمى بضمهم ادناهم وهم يد على من سواهم .

— الناس كاسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره والمستشار من

وهو بالخيار ما لم يتكلم . ورحم الله عبدا قال خيرا  
فغفم أو سكت عن شر فسلم .

— اسلم تسلم واسلم يوتك الله اجرک مرتين  
وان احبكم الي واتركم مني مجلسا يوم القيامة  
احاسنكم اخلاقا الموطأون اكنافا الذين يالفون ويؤلفون  
— لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه  
وقوله ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ونهيه عن  
تميل وقال وكثرة السؤال اوضاعة المال ومنع وهات  
وعقوق الامهات وواد البنات .

— اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة  
تحبها وخالق الناس بخلق حسن وخير الامور  
اوسطها .

— احب حبيك هونا ما عسى ان يكون بغيضك  
يوما ما وقوله الظلم ظلمات يوم القيامة .

الى غير ذلك من بيانه مما روته الكافة عن  
الكافة مما لا يقاس به .

وقال صلى اله عليه وسلم بيد اني من قرئش  
ونشأت في بني سعد فجمع الله بذلك قوة عارضة  
البادية وجزالتها ونضارة الفاظ الحاضرة ورونق  
كلامها الى التأييد الالهي الذي مدده الوحي .

وقد تواترت الروايات بقصة الوليد بن المغيرة :  
انطلق الوليد بن المغيرة حتى اتى مجلس تومسه  
من بني مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آتفا  
كلاما ما هو من كلام البشر ولا من كلام الجن ان له  
لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله  
لمغذوق وانه يعلو ولا يعلى عليه ، ثم انصرف الى  
منزله فقالت قرئش صبا والله الوليد والله لتصبان  
قرئش كلهم الى آخر القصة اهـ

قال الاستاذ الشيخ طنطاوي الجوهري :

جوهرة في اعجاز القرآن (ص 111) حديث عجيب  
في بلاغة آية « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل  
من مزيد » .

في يوم 13 يونيو سنة 1932 قابلني الاديب  
المصري الاستاذ كامل كيلاني فحدثني حديثا عجيبا  
كان اشار اليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة

الى الطبع وهذا الحديث راجع الى البلاغة التي ظهرت  
في آية يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد  
فهاك حديثه :

قال كنت مع الاستاذ فنكل وهو من افاضل  
المستشرقين الامريكين وكانت بيني وبينه صلات ادبية  
وثيقة وكان يأخذ برأيي في ذكر المشاكل التي تقابله في  
الادب لما يعتقد في من الصراحة ، ففي ذات يوم  
همس في أذني متهيبا فقال خبرني عن رأيك بصراحتك  
المعروغة ، امن يعتقدون اعجاز القرآن انت ام لعلك  
تجاري جمهور المسلمين الذين يتلقون ذلك ككبرا عن  
كابر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفى على  
أحد وهو يحسب أنه قد التقى سهما لا سبيل الى دفعه  
فابتسمت له كما ابتسم لي وقتلت لكي تحكم على بلاغة  
اسلوب بعينه ، يجب ان نحاول ان نكتب مثله او نقلده  
فلنحاول ليظهر لنا انحن قادرين ام عاجزون عن  
محاكاته وتقليده فلنجرب ان نعبر عن سعة جهنم  
فماذا نحن قائلون؟ فأمسك بالقلم وامسكت به فكتبنا  
نحو عشرين جملة متخيرة الاسلوب نعبر بها عن  
هذا المعنى .

فقلت له مبتسما ابتسامة الظاهر الواثق :

الآن تتجلى لك بلاغة القرآن واعجازه بعد  
ان حاولنا جهدنا ان نحكيه في هذا المعنى فقل هل  
ادى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما اديناه فقلت لتد  
كنا اطفالا في تأديته .

فقال مدهوشا وماذا قال قلت له يوم نقول  
لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد .

فصفق أو كاد وفتح فاه كالابله أمام هذه البلاغة  
العجزة وقال لي : « صدقت نعم صدقت وانا اقصر  
لك ذلك مغتبطا من كل قلبي » هذا لفظه فقلت له :

« ليس عجيبا ان تدعن للحق وانت اديب خبير  
بقية الاساليب » .

وهذا المستشرق يجيد الانجليزية لانها لغة بلاده  
في امريكا والالمانية لانها اللغة التي درس بها الادب  
والعبرية لانها لغة الامومة والعربية لانها اللغة  
التي وقف حياته على درس ادبها فهو رجل متخصص  
للادب وقد جعل حياته وقتا عليه .

# دراسات وأبحاث لغوية

- عروبة عريقة من المحيط الى الخليج  
للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله
- العرب والكتوف العلمية  
للككتور يحيى الهاشمي
- علم الترسييس  
للاستاذ عبد الحق فاضل
- الضاد الخالدة  
لفضيلة الشيخ الحاج ابراهيم نياس
- أمثلة من الدلالة التاريخية للفظ العربي  
للاستاذ عبد الله كنون
- مزلق التعريب  
بقلم مصلحة التعريب (ممتت)
- العربية فلسفة وحيياة  
للاستاذ عبد الرحيم السايح
- اللغة العربية على المحك  
للاستاذ خليل الهنداوي
- اللغة العربية والعالم الحديث  
للاستاذ شارل بيلا
- هل اللغة العربية صعبة ؟  
كيف يمكن تيسيرها ؟  
للاستاذ رشاد دارغوث
- تيسير اللغة العربية للاجانب  
للككتور الطاهر احمد مكي
- اقليمية اللهجات العامية أكبر حجة على  
عدم صلاحيتها  
للاستاذ الياس رنتيس
- الحرف العربي وجولاته في العالم  
للككتور عفيف بهنسي
- المستقبل للغة العربية الفصحى  
للاستاذ هنري فليش